

ظاهرة تقسيم العمل وأبعادها الاجتماعية في الفكر الدوركايمي

بين عوامل التشكل وعيون منتقديه

**The phenomenon of division of labor and its social dimensions in Durkheim thought
Between the shaping factors and the opinions of his critics**

د.عتيقة حرارية، أستاذة محاضرة "أ"، جامعة الجزائر 2- أبو القاسم سعد الله، atika.herairia@univ-alger2.dz

تاريخ النشر: 2020/07/05

تاريخ القبول: 2020/02/24

تاريخ الإرسال: 2020/01/18

ملخص:

أعتبر كتاب **تقسيم العمل الاجتماعي** - من وجهة نظر دارسي نظرية علم الاجتماع - واحدا من أهم مصادر التي تُعرف بأبعاد الفكر الدوركايمي، لأنه كان موضوع أطروحته للحصول على الدكتوراه، كما صُنّف على أنه العمل الرئيسي الذي قد يلي "قواعد المنهج العلمي" في الأهمية بالنسبة لمجمل الأعمال التي قدمها، بينما يصنف موقف ثاني جهد دوركايم الأساسي في محاولته المنهجية وإبرازه لبعض الخصائص النوعية للظاهرة الاجتماعية، أما مخرج دراساته وآرائه فيعتقد أنه يعوزه الكثير من الصدق العلمي، فما عده عاما (كتقسيم العمل) عده آخرون من أمثال (ريمون آرون) ثانويا وسطحيا، لأنه لم يفسر لماذا يحدث تقسيم العمل، من هذا المنطلق سنحاول مناقشة ظاهرة تقسيم العمل وأبعادها الاجتماعية في الفكر الدوركايمي.

الكلمات المفتاحية: تقسيم العمل، التضامن الاجتماعي، التغيير الاجتماعي، الضمير الجمعي، النسق الأخلاقي.

Abstract:

The book of **the division of social work**, from the point of view of specialists in the theory of sociology, is one of the most important sources known as the dimensions of Durkheim thought, Because it was the subject of his doctoral thesis, it has also been identified as the main work of the " **Rules of the scientific method** " of importance for the overall work it has presented. The second position of Durkheim's primary effort is to describe his methodological attempt and highlight some of the qualitative characteristics of the social phenomenon.

While the position of the second effort Durkheim basic in his methodological attempt to highlight some of the specific characteristics of the social phenomenon, while classifying a second position Durkheim's primary effort in his methodological attempt to highlight certain qualitative characteristics of the social phenomenon.

The results of Durkheim's studies and his opinions are believed to lack much scientific truth. What he considered a year (like division of labor) was considered secondary and superficial by others such as Raymond Aaron, because he did not explain why the division of labor occurs. In this sense we will try to discuss the phenomenon of division of labor and its social dimensions in Durkheim thought.

Keywords: division of labor, social solidarity, social change, collective conscience, moral pattern.

توافق السنة (2017) الذكرى المئوية لوفاة عالم الاجتماع الفرنسي إميل دوركايم الذي صادف تاريخ الـ 15 نوفمبر من سنة 1917م، بعد الصدمة التي تلقاها بعد مقتل ابنه الوحيد في عمليات الحرب العالمية الأولى سنة 1916، الابن الذي كان من أبرز الطلاب، والذي خطط له والده أن يكون وريثه العلمي، إذ جعله يتخصص بموضوع علم اجتماع اللغة.. لكن الموت خطفه منه، وفقد دوركايم أمل العيش في الحياة بفقدان ولده.. ورحل على أثر سكتة قلبية، بعد معاناة دامت لعدة أشهر، تاركا وراءه تراثا فكريا غزيرا أثار حوله الكثير من الجدل، في هذا السياق سنعمل من خلال هذا الطرح تسليط الضوء من جديد على ظاهرة تقسيم العمل وأبعادها الاجتماعية في الفكر الدوركايمي، من خلال البحث في النقاط التالية:

- العوامل التي ساهمت في تشكيل تفكير دوركايم.

- ظاهرة تقسيم العمل عند دوركايم.

- التضامن الاجتماعي وتقسيم العمل الاجتماعي عند دوركايم

- التغير والتطور وتقسيم العمل الاجتماعي عند دوركايم

- فكر دوركايم في عيون منتقديه

يُعدّ دوركايم المؤسس الرئيسي لعلم الاجتماع بالمعنى الأكاديمي والجامعي، إذ بفضل جهوده وإصراره على فكرة الاختلاف النوعي للدراسات الاجتماعية عن الدراسات الفلسفية والنفسية، وعمله على تأسيس كرسي أكاديمي لعلم الاجتماع في الأكاديمية الفرنسية، ظهر علم الاجتماع في شكل مؤسسي. ولعلها نتيجة طبيعية فرضتها تطلعات وأفكار دوركايم على الخصوص - الذي قُدّر له أن يواجه ظروفًا مرتبطة بالعمل الأكاديمي الجامعي عكس سابقه، ابن خلدون وأوجست كونت، وماركس الذين كانوا رجال فكر ورجال حياة عامة [1] - بل إن الكثير يؤكد على أن دوركايم قام "بتقديم أعظم إسهام في علم الاجتماع قدمه إنسان، وبدونه لساّر تاريخ علم الاجتماع في اتجاه آخر، وكان علم الاجتماع في خطر بالغ من رده إلى علم النفس الذي كان في ذلك الوقت علما أكاديميا، كما كان الجو العام أكثر قبولا بنسق فكري يفسر القوى التي تحرك المجتمع في ضوء الدوافع السيكولوجية والغرائز والإشباعات" [2]، فهو بلا ريب أحد دعائم الحركة العلمية في النصف الأخير من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وهو مؤسس علم الاجتماع الحديث وزعيم المدرسة الفرنسية (الوظيفية) لعلم الاجتماع [3]. وحتى نفهم الأسس الفكرية لدوركايم وأبعاده التفسيرية لابد أن نقف على بعض التفاصيل المتعلقة بالعوامل التي شكلت معالم الفكر الدوركايمي.

أولاً- عوامل شكلت تفكير دوركايم

عاش إميل دوركايم (Emil DURKHEIM) في الفترة ما بين 1858-1917م، مسقط رأسه بمدينة إبينال (Epinal) باللورين، المقاطعة الفرنسية الشرقية، ولد دوركايم ونشأ في أحضان أسرة يهودية فهو أحد أحفاد كبار أبحار اليهود الذين ترجع أصولهم لحاخامات المذهب الرباني اليهودي ممن يدينون بالمذهب العبراني الجديد، لذلك اتجه دوركايم منذ طفولته وصباه نحو دراسة التلمود والعهد القديم كما درس أيضاً العبرية والتاريخ ثم هجر اللغويات كي يدرس تاريخ الأديان. إلى جانب اليهودية تأثر دوركايم بتعاليم الديانة الكاثوليكية التي تلقاها من إحدى مدرساته الكاثوليكيات، التي كان لها فضل تربيته وتنقيفه وتلقيه تعاليم الدين الكاثوليكي، وكان لهذه المربية الكاثوليكية أثرها الواضح في نشأته الدينية تلك التي غلبت على معظم كتاباته السوسولوجية فجاءت دراساته في علم الاجتماع الديني ذات مسحة صوفية متميزة.

إلتحق دوركايم بالمدرسة العليا سنة 1879م، وفيها التقى بعدد من الرجال الذين تركوا أثارا واضحة على الحياة الفكرية في فرنسا، وعليه من أمثال الفيلسوف هنري برجسون (Henri Bergson)، وبيير جانيت (P. Janet) الباحث في علم النفس، وفوستل دي كولانج (F. De Goulange) صاحب كتاب "المدينة القديمة".

بعد تخرجه من هذه المدرسة سنة 1882م اشتغل دوركايم بالتدريس في المدارس الثانوية حتى سنة 1887م، ثم أتيح له أن يذهب إلى ألمانيا في إجازة علمية، وهناك تعرف على فكر فاجنر (Wagner) وشمولر (Hmolr) وفونت (fonte) وتأثر بهم وانعكس هذا على موقفه الفلسفي، سواء من الفكر أو من الواقع، هذا بالطبع بجانب تأثره البالغ بفلاسفة عصر التنوير من أمثال جان جاك روسو (Jean-Jacques Rousseau) ومرنتسكيو (Montesquieu)، كما تأثر بالطبع بفكر سان سيمون (san simon) الذي عدّه دوركايم أستاذه في علم الاجتماع [4].

ذاعت شهرة دوركايم، وانتقل في عام 1878 م للتدريس بجامعة بوردو، بصفته أول أستاذ محاضر في علم الاجتماع والتدريس، أين ألقى دروسا في علم الاجتماع العائلي والجنائي وفي التضامن الاجتماعي والانتحار وفي التربية والدين، كما ألقى دروسا في تاريخ المذاهب السوسولوجية وفي المسؤولية والجزاء والتنظيم الاجتماعي للقبائل الاسترالية القديمة [5]، ثم انتقل في عام 1902 إلى جامعة السربون أين بقي أستاذا بها إلى غاية وفاتها.

بالإضافة إلى ما سبق، برزت مجموعة من العوامل التي شكلت تفكير دوركايم، نذكر على الخصوص:

- المذهب العقلاني عند ديكارت بتأكيده القوى للتحليل الصوري، ما جاء به عصر التنوير (الذي يعد عصر جديد يتحقق فيه الاستخدام الحر للعقل)،
- وضعية أوجست كونت التي أنارت الطريق لوجود علم جديد للمجتمع، بمنهجه ومدخله واتخذ مكانا مع العلوم الأخرى، وقدرته على اكتشاف القوانين واستخلاص التعميمات والقيام بالتنبؤ،
- أثر بصمة نظرية التطور على تفكير دوركايم فقد ساعدته على رؤية المجتمع في ضوء النمو العضوي وتشابك الأجزاء.
- كما ترك دوركايم تراثا علميا يتمثل في مجموعة من المؤلفات والمقالات هذا بالإضافة إلى إنشائه المدرسة الفرنسية لعلم الاجتماع، من أهم مؤلفاته :
1. تقسيم العمل الاجتماعي (1893)،
 2. قواعد المنهج في علم الاجتماع (1895)،
 3. الانتحار (1897)،
 4. التربية الخلقية (1903)،
 5. الصورة الأولية للحياة الدينية (1912)،
 6. علم الاجتماع والفلسفة (1924)،
 7. المجلة السنوية لعلم الاجتماع عام 1896م التي أصبحت لعدة سنوات المجلة الرئيسية للفكر الاجتماعي والبحث في فرنسا [6].

ثانياً- ظاهرة تقسيم العمل عند دوركايم

اهتم دوركايم بظاهرة تقسيم العمل اهتماما خاصا في بحوثه وخصص لها مؤلفا كاملا، حيث يتضمن كتابه تقسيم العمل أهم النصوص المنهجية في علم الاجتماع والتي حطت التصورات الطارئة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ميلادي، لذا خصص دوركايم الكتاب ليوضح رأيه في إمكانات تطبيق المقاربة الوظيفية من مبدأ يعتبر الوظيفية مبدأ نسبيا منهجيا. لكن كيف فسر دوركايم ظاهرة تقسيم العمل؟ يرى دوركايم أن ظاهرة تقسيم العمل ليست حديثة النشأة، لكن الجانب الاجتماعي منها كان أكثر ظهورا في أواخر القرن الثامن عشر، أين تطورت هذه الظاهرة إلى الحد الذي جعلها عامة وواضحة لكل فرد، حيث كشف لنا الاتجاه الذي اتخذته الصناعة الحديثة بوضوح مدى عمومية وانتشار الظاهرة. وبما أن الصناعة تهدف إلى تقسيم العمل إلى أبعد الحدود أصبحت المهن منعزلة متخصصة ليست فقط داخل المصنع بل أصبح كل إنتاج في حد ذاته متخصصا من ناحية ومعتمدا على غيره من ناحية أخرى، كذلك

في معظم قطاعات المجتمع سواء في الوظائف الإدارية أو العلمية أو غيرها ونجد شبيها لذلك أيضا في الكائنات العضوية والمجتمعات.

لذلك يعتقد **دوركايم** أن تقسيم العمل يختلف باختلاف حجم المجتمع وكثافة السكان، وشدة التفاعل الاجتماعي، فإزدياد عدد السكان هو العامل الأساسي لتقسيم العمل، حيث ترتب على ذلك - حسب دوركايم دائما - شدة الصراع من أجل البقاء والاستمرار، فكثرة العدد تفرض على الناس ضرورة التخصص المهني، الأمر الذي يقلل من حدة الصراع ويتيح فرص أوسع للحصول على وسائل الحياة.

ويرى **دوركايم** أنه لكي نصل إلى تعريف موضوعي لتقسيم العمل لا بد من ملاحظته ومقارنته ودراسته كحقيقة موضوعية، ولما كان تقسيم العمل يتضمن كل من القوة الإنتاجية وقدرة العامل لذلك فهو شرط ضروري لتقدم المجتمعات سواء أكان فكريا أو ماديا، والوظيفة الأساسية لتقسيم العمل أنه يخلق شعورا بالتضامن والتماسك والترابط بين الأفراد علاوة على ذلك له أثر ملحوظ وواضح في زيادة الوظائف المقسمة المتخصصة [7].

كما يرى **دوركايم** أن تقسيم العمل وما يترتب عليه من تباين بين الأفراد يؤدي وظيفة ايجابية اتجاه المجتمع، حيث يعمل على تدعيم نوع من التماسك المتبادل بين أفراد المجتمع، وينعكس هذا التماسك المتبادل على العقلية الإنسانية والأخلاقيات، كما أنه يبرز في ظاهرة التضامن العضوي ذاتها. وكلما إزداد هذا التضامن رسوخا قلت أهمية الضمير الجمعي، وهكذا يستبدل القانون الجنائي القائم على جزاءات رادعة بقانون مدني إداري يهدف إلى حفظ حقوق الآخرين بدلا من العقوبة [8]. لكن ما علاقة بين تقسيم العمل والتضامن عند دوركايم؟

ثالثا - الضمير الجمعي وتقسيم العمل الاجتماعي عند دوركايم

مفهوم **الضمير الجمعي** من مفاهيم الرئيسية في فكر **دوركايم** ويعرفه بأنه "مجموعة من المعتقدات والعواطف المشتركة لدى متوسط أعضاء المجتمع الواحد، والتي تشكل نظاما اجتماعيا محددًا له حياته الخاصة به"، ويعتقد **دوركايم** أن الضمير الجمعي يعتمد في وجوده على الأحاسيس والعواطف والمعتقدات الموجودة في الضمير الفردي، وهو ما يفسر عنده الارتباط ذو التأثير المتبادل بين الضمير الجمعي والأفكار الاجتماعية في الواقع الاجتماعي نتيجة الضغوط التي يمارسها الضمير الجمعي على أعضائه [9].

كما يرى **دوركايم** أن القانون والأخلاق والضبط الاجتماعي تحمل ولاءً ملحوظًا للضمير الجمعي الذي يعني مجموعة من المعتقدات والعواطف العامة بين أعضاء المجتمع، والتي تُكون نسقا خاصا، لهذا الضمير وجوده الخاص المتميز فهو يدوم عبر الزمن ويعمل على توحيد الأجيال، كما يعيش الضمير

الجمعي بين الأفراد، لكنه يتميز بالقوة والاستقلال وبخاصة حينما تزداد درجة التشابه بين الأفراد. وتعكس دراسة الضمير الجمعي عند دوركايم نظريته عن القهر الاجتماعي.

رابعاً- التضامن الاجتماعي وتقسيم العمل الاجتماعي عند دوركايم

في بحثه عن نماذج التضامن الاجتماعي التي تسود المجتمع، انتهى دوركايم إلى وجود نموذجين أساسيين للتضامن هما التضامن الآلي والتضامن العضوي، حيث يسود التضامن الآلي في المجتمعات البدائية (التقليدية) التي تربطها أفرادها مشاعر قوية بينما يرتبط التضامن العضوي بالمجتمعات الحديثة التي يزداد فيها تقسيم العمل.

يرى دوركايم أن المجتمع الذي ينتشر فيه التضامن الآلي هو مجتمع انقسامي، يتميز بسمات اجتماعية خاصة، حيث يغلب على السلوك الإنساني فيه التجانس الاجتماعي، كما يؤطر القانون والأخلاق والضبط الاجتماعي الأفكار والمعتقدات والعادات والآراء والسلوك الأفراد والجماعات، ويحمل أفراد هذا المجتمع ولاءً ملحوظاً للضمير الجمعي الذي يعني مجموعة المعتقدات والعواطف العامة بين أعضاء المجتمع، والتي تكون نسفاً خاصاً، مثل هذا الضمير العام له وجوده الخاص المتميز فهو يدوم عبر الزمن، ويعمل على توحيد الأجيال، والضمير الجمعي يعيش بين الأفراد لكنه يتميز بالقوة والاستقلال وبخاصة حينما تزداد أوجه التشابه بين الأفراد.

أما التضامن العضوي فهو النتيجة الحتمية لظاهرة تقسيم العمل، الذي يسود في المجتمعات الصناعية الحديثة، والتي يستتبعها تطور مستمر للفردية والأناية، ويميل فيها الفرد إلى الإحساس بأنه منعزل عن الهيئة الاجتماعية، فالتضامن العضوي تكاملي، يبني على تقسيم عمل معقد، يترتب عليه بالضرورة تخصص كل فرد في مجال معين، وحاجته إلى التعاون مع الآخرين. ويأتي تضامن الأفراد وتماسكهم في هذه المجتمعات بوصفها نتاجاً لتباينهم، وهو ما يسمح بتزايد نصيب القانون التعاوني [10].

خامساً- التغير والتطور وتقسيم العمل الاجتماعي عند دوركايم

يعتقد دوركايم أن كثافة المجتمع، وتقسيم العمل والاتصال بالمجتمعات أخرى عوامل بارزة في التطور والتغير الاجتماعي، ويستطيع أن يتبين ثانياً أنه يعتبر الواقع المادي الموضوعي-ليس فقط الواقع الاقتصادي- تابعاً للأفكار والتصورات أو بصفة عامة لمظاهر الوعي الجمعي المتمثل في وجود قيم مشتركة بين الأفراد [11].

العامل الفعال الوحيد الذي يؤثر في المجتمع هو البيئة الاجتماعية بآتم معنى الكلمة، ونعني بها البيئة الإنسانية. وحينئذ يجب على عالم الاجتماع أن يبذل مجهوده الرئيسي في الكشف عن مختلف خواص هذه البيئة الإنسانية التي تستطيع التأثير في تطور الظواهر الاجتماعية. ولقد اهتمنا حتى الآن إلى نوع

من الخواص التي يتحقق فيها الشرط السابق بصفة شديدة الوضوح، أما النوع الأول فهو "عدد الوحدات الاجتماعية" أو ما سبق أن أطلقنا عليه أسم "حجم المجتمع - Volume De La Société" وأما النوع الثاني فهو درجة تركيز "الكتلة الاجتماعية" أو ما سبق أن أطلقنا عليه اسم "الكثافة الديناميكية - La densité dynamique" ويجب ألا يفهم هذا المصطلح الأخير على أنه يعبر فحسب عن درجة التركيز المادي التي لا تؤثر تأثيرا واضحا مادامت هناك بعض الفجوات الروحية التي تفصل بالأفراد أو تفصل بالأحرى بمجموعات الأفراد، بل يجب أن يفهم هذا لمصطلح أيضا على أنه يعبر عن الصلات الروحية الوثيقة التي لا يعد التركيز المادي إلا تابعا لها أو بصفة عامة إحدى نتائجها.. وبهذا يمكن تحديد الكثافة بعدد الأفراد الذين يعيشون حياة مشتركة إلى جانب ما يتبادلونه من خدمات وما يوجد بينهم من تنافس. وليس من الممكن أن تتأثر الحياة الاجتماعية إلا بعدد الأفراد الذين يشتركون اشتراكا فعليا في هذه الحياة، ولهذا السبب كانت درجة الالتئام بالأجزاء الاجتماعية التي يتكون منها أي شعب من الشعوب هي خير وسيلة تعبر عن كثافته الديناميكية.. والحالة التي توجد عليها هذه البيئة - الاجتماعية - في كل لحظة تخضع هي نفسها لبعض الأسباب الاجتماعية، وهذه الأسباب على نوع فمنها ما هو جزء لا يتجزأ من بقية المجتمع، ومنها ما يرجع إلى التأثير المتبادل بهذا المجتمع وبالمجتمعات التي تجاوره [12].

سادسا- فكر دوركايم في عيون منتقديه

شكل فكر دوركايم نقطة تحول هامة في تاريخ التفكير الاجتماعي ونظرية علم الاجتماع، فقد تجنب كثيرا من المشكلات التي أثارها علماء الاجتماع التطوريون في القرن التاسع عشر وجعل اهتمامه منصبا على تحديد موضوع علم الاجتماع [13]، كما حاول دوركايم أن يصنع شيئا، وأن يفهم المجتمع، حتى بالنسبة لأهم أعماله "تقسيم العمل الاجتماعي" يرى بعض نقاده أنه لم يكن أصيلا في مسعاه فقد أخذ من سان سيمون، وأوجست كونت، وحاكي ماركس، وأن ما يراه البعض على أنه من إبداعاته، لم يكن إلا ردود أفعال متفاوتة في الدقة والإتقان في المحاكاة والتأليف، والدليل على ذلك :

- قضايا وأفكار دوركايم عن تقسيم العمل والضمير الجمعي والتضامن الاجتماعي تُؤيد وجهة نظر أوجيست كونت الذي يقول إن تقسيم العمل ليس مجرد ظاهرة اقتصادية وإنما شرط أساسي للحياة. كما تؤكد لنا تأثيره الواضح بفكر كونت وبالمماثلات البيولوجية التي عقدها صراحة وضمنا مع المجتمع الإنساني.
- يؤكد رادكليف براون أن دوركايم هو أول من دعم استخدام المماثلة البيولوجية في علم الاجتماع، وبالتالي أجهض محاولته الشخصية لإبراز الطابع النوعي لعلم الاجتماع.

- يوضح كليفورد فوجان وسكوتفورد ونورثون من خلال تحليلهما ومتابعتهما لأعمال دوركايم أنه أراد أن يبدأ وضعياً بدراسة الظواهر الاجتماعية كأشياء، وبالتركيز على أبعادها الخارجية، القابلة للملاحظة، لكنه في مسلكه سقط في المثالية لأنه علق كل شيء تقريباً على (التصورات الجمعية) والمشاعر والقيم المشتركة، ونظراً لصعوبة دراسة هذه الأبعاد وضعياً كأشياء فقد استبدل التحليل السوسيولوجي بالتوجيه السيكولوجي الاستنباطي. قد كان في صراع بين إقدام وإحجام موزعين بين الوضعية، والوقوف ضد النزعة الفردية، وبالتالي عندما أراد إنكار (الفردية) أضحى مثالياً، وعندما أراد أن يحافظ على الوضعية أضحى سيكولوجياً مما جعله ينتهي إلى عكس ما بدأ، ويصل إلى ما هو مخالف لما أراده لعلم الاجتماع [14].
- يتفق رايت ميلز وارفينج زايتلن وألفن جولدنر على التوالي على تأثير دوركايم بماركس، خاصة فيما يتعلق بقضية الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي، حيث يرى ملز أن دوركايم قرأ لماركس وأراد أن يثبت عكس ما وصل إليه بشأن أسبقية الوجود على الوعي، أما زايتلن فيرى أن ماركس كان شبهاً ظل يحاكيه ويناوره كل من أتى بعده وفي مقدمتهم دوركايم، بينما ذهب جولدنر إلى القول بأن دوركايم أراد أن يخالف ماركس لكنه لم يستطع إلا أن يلتقي معه، ولو على هامش الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي. فهو يرى أن وجود المجتمع سابق لوجود الفرد، والوعي الجمعي سابق للوعي الفردي، والوجود الاجتماعي ليس متحدداً لديه بمتغيرات مستقلة أكثر أهمية من غيرها، إنما اعتبر كل المجتمع وجوداً اجتماعياً، بمعنى أنه وسع من نطاق الوجود الاجتماعي ولم يحدده بالعلاقات الإنتاجية، كنقطة بدء مهمة. ويدلل جولدنر على التأثير الدوركايمي بالفكر الماركسي بإشارته إلى أن الأول كان واعياً بقوة فكر الثاني، وكان ملاحظاً لتطور الاشتراكية الأوروبية، وترحك الصراع الذي أفضى إلى إضرابات ديكارزيفيل سنة 1886م وهي السنة نفسها التي أنهى فيها دوركايم مسودة كتابه تقسيم العمل الاجتماعي، وقد كانت هذه الظروف - بجانب قيم ومصالح غير معلنة - داعية لندائه بأفكار التضامن خوفاً من الشقاق والتفكك في المجتمع الفرنسي.
- ألم عالم الاجتماع الفرنسي ريمون آرون (Raymond Aron) بكتابات دوركايم سياقاً ولغة وتحليلاً، وقد ذهب في كتابه "التيارات الأساسية في الفكر السوسيولوجي" إلى أن الفكرة الأساسية التي يقوم عليها كتاب "تقسيم العمل الاجتماعي" تتركز في التصور الدوركايمي لتحديد العلاقة بين الفرد والمجموع، ويعرض (Aron) المسألة من خلال التساؤل التالي: كيف يُقيم جمع من الأفراد مجتمعاً؟ وكيف ينجزون الشرط الضروري - الوعي - لوجودهم الاجتماعي؟ لكي

يجيب دوركايم على هذا السؤال أقام تمييزا واضحا بين نمطين من التضامن: التضامن الآلي والتضامن العضوي، تتحدد أهم خصائص مجتمع التضامن الآلي بضيق الاختلاف والفوارق بين الأفراد وانحسارها إلى أقل درجة ممكنة، فالأفراد في هذا المجتمع متشابهون، لهم نفس المشاعر والأحاسيس، ويتمسكون بنفس القيم ويتفقون على نفس الأشياء المقدسة، وبعبارة موجزة أفراد هذا الجمع متجانسون لأنهم لم يتباينوا ولم يتغيروا بعد.

على النقيض من هذا النمط يكون التضامن العضوي، الذي يأتي تضامن الأفراد وتماسكهم فيه نتاجا لتباينهم، وتعبيرا عن هذا التباين في الوقت نفسه، ولأن الأفراد يتغيرون ويتبادلون فهم يتفقون ويحدث بينهم الالتقاء. وهنا يطرح (Aron) التساؤل التالي: لماذا أطلق دوركايم على التضامن القائم على التباين تضامنا عضويا؟ هنا تدخل المسألة البيولوجية للتبرير والتوضيح. فمكونات الكائن الحي لا تتشابه، أليس المسألة البيولوجية للتبرير والتوضيح. فمكونات الكائن الحي لا تتشابه، أليس العقل مختلفا عن القلب وعن الرئتين؟ بلى، فهذه الأعضاء متغايرة لكنها ضرورية ولا غنى عنها للجسم بالتساوي، فكل يؤدي وظيفته [15]، لكن ما الذي ينقل المجتمع من الحالة الآلية إلى العضوية؟ يحدد دوركايم هذا كما هو مبين في الفقرة السابقة مباشرة في الكثافة الاجتماعية، والتقسيم الاجتماعي للعمل، وأنماط الاتصال التي تيسر التلاحم بين الأفراد وبالتالي الاتفاق والاشتراك بين القيميين وبين البيئة الاجتماعية وما يحيط بها من عوالم.

في الختام نؤكد على ما يلي:

- ظاهرة تقسيم العمل من أهم الدراسات التي قدمها دوركايم وتتلخص في التدليل على نمو تقسيم العمل بوصفه يمثل عملية تاريخية ضرورية، ويؤدي بالتالي إلى تزايد التضامن الاجتماعي بين الناس، فهذه الوظائف أو الأعمال يؤديها الناس وقد انتظموا في ترتيب طبقي محدد تتباين فيه درجات الثروة والقوة والهيبة الاجتماعية، كما أن تطور الصناعة وتقسيم العمل الحاصل به لن يؤدي إلى صراع المصالح والتفكك، لذا على الدولة الاستمرار في دعم النسق الأخلاقي العام في المجتمع لكي لا يحدث خلاف ذلك، يعتقد دوركايم إن هناك بعض الإصلاحات الاجتماعية الضرورية التي يتعذر بدونها إقامة عدالة حقيقية وإيجاد تضامن اجتماعي قوي [16].
- كما يعتقد دوركايم انه لا يتعين فصل الأخلاق عن العلم وإنما يجب أن نحاول إقامة علم أخلاقي مختلف تماما عن تلك الفلسفة الأخلاقية ويرجع السبب الأساسي في ذلك إلى إن القواعد الأخلاقية إنما ترتبط ارتباطا وثيقا بظروف الحياة الاجتماعية والتي تعتبر نسبية من حيث الزمان

والمكان، وهكذا يسعى علم الظواهر الأخلاقية إلى تحليل اثر الصور المتغيرة للمجتمع في تغير طابع المعايير الأخلاقية محاولا ملاحظة ووصف وتصنيف هذه المعايير .

- برزت نزعتة الوظيفية بشكل واضح من خلال كتاباته حول نظام تقسيم العمل، وما له من علاقة متينة بظاهرة التضامن الاجتماعي والشعور الجمعي. وبالتالي فهو يُعد الأب الروحي للمدرسة الوظيفية في علم الاجتماع من خلال إطلاقه صفة العضوية على التضامن الاجتماعي في المجتمعات الحديثة، وكذلك عند قيام أعضاء المجتمع (المؤسسات، النظم، الطبقات، الأفراد) بالوظائف الموكلة إليهم شرطا لبقاء المجتمع واستمراره تماما كما يعد قيام أعضاء الكائن الحي بوظائفها شرطا لبقاء ذلك الكائن [17].

- صحيح أن مفاهيم من أمثال تقسيم العمل الاجتماعي والتضامن الآلي والعضوي والعقل أو الضمير الجمعي وغيرها لا تزال رائجة ومؤثرة في الكتابات الاجتماعية الحديثة والمعاصرة، لكن المدرسة الوظيفية التي حملت مفاهيم ونظريات دوركايم في موضع نقد واستهجان لدى غالبية علماء الاجتماع اليوم، وذلك لسعيها على التأكيد على أهميه استمرارية الحالة القائمة وفرض نوع من التوازن بحجة ضرورة توحيد واستقرار المجتمع، مما جعلها تسعى إلى الوصف والغائية أكثر منها إلى الشرح والتفسير لما يجري في المجتمع.

الهوامش:

[1] عبد الباسط عبد المعطى، 1981، اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، عدد 44، ص78، الكويت.

[2] يحيى مرسي بدر، 2008، علم الاجتماع مقدمة في سوسيولوجيا المجتمع، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ص ص 75/77، الإسكندرية، مصر.

[3] إحسان محمد الحسن، 1999، رواد الفكر الاجتماعي، دار وائل للنشر، ص224، بغداد، العراق.

- [4] إميل دوركايم، 1961، قواعد المنهج في علم الاجتماع، ترجمة محمود قاسم، مكتبة النهضة المصرية، ص4، مصر
- [5] يحيى مرسي بدر، المرجع السابق، ص ص 75/74.
- [6] محمد أحمد بيومي، 2000، أسس وموضوعات علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، ص 134، مصر.
- [7] نفس المرجع، ص 142.
- [8] عبد العزيز بن علي الغريب، 2009، نظريات علم الاجتماع، مكتبة الملك فهد الوطنية، ص 157، الرياض، المملكة العربية السعودية.
- [9] نفس المرجع، ص 156.
- [10] جينفر م.ليمان، 2013، تفكيك دوركايم: نقد ما بعد بعد بنوي، ت: محمود أحمد عبد الله، المركز القومي للترجمة، ط1، ص ص 27/26، القاهرة، مصر.
- [11] إميل دوركايم، المرجع السابق، ص ص 233/ 229.
- [12] عاطف محمد غيث، بدون سنة علم الاجتماع: النظرية والمنهج والموضوع، دار القاهرة، بدون ط، ص 48، مصر.
- [13] نبيل عبد الحميد الجبار، 2008، تاريخ الفكر الاجتماعي، دار دجلة للنشر والتوزيع، ط1، ص95، عمان، الأردن.
- [14] عبد الباسط عبد المعطى، مرجع سابق، ص88.
- [15] إميل دوركايم، مرجع سابق، ص ص 74/70.
- [16] عبد الباسط عبد المعطى، مرجع سابق، ص89.
- [17] معن خليل العمر، 1991، نقد الفكر الاجتماعي المعاصر، دار الآفاق الجديدة، ص 114، العراق، بغداد.